ايليا أبو ماضي الشاعر

لبثت أسبوعاً أطالع ديوان الجداول للشاعر ايليا ابو ماضي ، وإذ فرغت من درس قصائده هممتُ بكتابة مقالة فيها تلبيةً لطلب مجلة « المقتطف » ، إلاّ اني بحثت عن « الجداول » فلم أجده . وأغرقت في بحثي عنهُ من غير جدوى

وكنت إذ ذاك في أقصى الحاجة الى مراجعته وإعادة النظر في الملاحظات التي دوّنتها على هوامشه في اثناء المطالعة

وفي أحد الايام اذ انا منصرف الى كتابة مقالة جافة سمعت خطيبتي تنشد في خدرها هذه الابيات ، وقد لحّنتها على هوى نفسها تلحيناً جميلاً ساحراً :

أراد الله أن نعشـ ـق لما أوجد الحُسنا
وألقى الحبَّ في قلبك إذ ألقاه في قلبي
مشيئتهُ ... وما كانت مشيئتهُ بلا معنى
فإن أحببتِ ما ذنبكِ أو أحببتُ ما ذنبي ؟

* * *

يريد الحبّ ان نضحك ، فلنضحك مع الفجر
وان نركض ، فلنركض مع الجدول والنهر
وان نهتف ، فلنهتف مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجري ؟

فافلتتُ القلمَ من يدي وهرولت الى خطيبتي فألفيتها مستغرقة في تطريز قماشة ، وإذ وقع نظرها عليَّ ابتدرتني بقولها : هل أنهيت مقالك الجافّ ؟

فقلت : لا ، ولكني سمعتك تهتفين مع البلبل فأسرعت اليك ... من اين جئت بهذه الابيات ؟

فأجابتني بلهجة رصينة : من ديوان الجداول لأبي ماضي

ثم ابتسمت ابتسامة عفرية وأردفت قائلة : ألا يروقك ان انشد غير صادراتك ؟

فقلت : لا تزالين تخطئين في فهمي . . . واين الجداول ؟
فأشارت بيدها الى سريرها وقالت : تحت المخدة
فضحكتُ بدلَ ان اغضب ، وضحكتُ في كثير من الغبطة إذ وجدت في هذه الصدفة خير ما استهلَّ به الكلام على الشاعر ايليا ابو ماضي

* * *

قال الكاتب الفرنسي غاستون راجو : « إن الشاعر هو الذي يستطيع ان يخاطب الاشجار لدى هبوب النسيم عليها او البشر في ساعة حزنهم وآلامهم وهو الذي يفهم ما لا يفهمه الغير ويحزر جميع اللغات الرمزية المبهمة ، وهو ال ذلك الرجل الذي يحاول الصعود الى الله ، وما يزال يجدّ في محاولته هذه حتى يوشك الامتزاج بالذات العلياء أو يخيَّل اليه انه امتزج بها وصار رسولاً . »

كم خفضنا الجناح للجاهلينا وعذرناهمُ فما عذرونا
خبروهم يا أيها العاقلونا
إنما نحن معشر الشعراء يتجلى سرّ النبوة فينا

وايليا ابو ماضي هو في معظم قصائده ذلك الشاعر الممتزج بالطبيعة ، المتغرّق بأسرارها وغوامضها الشاخص من وراء ذلك الى الخيال الاسمى ، الى الذات العلياء ، الى الله ! على أن في شخوصه الى ذلك الخيال شيئاً من التشكك قد نستطيع معه ان ندرج الشاعر في عداد القسطائيين ، أو ندرج ناحية من نواحيه فقط . لان للشاعر نواحي متعددة كما لمعظم الشعراء ، فهو تارة مؤمن وطوراً متشكك ، على انه لا ينحدر من هاتين الناحيتين الى الالحاد

جئتُ ، لا أعلم من ايـــــن ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرتُ قـــــدّامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى سـائراً ان شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت ؟ كيف أبصر ت طريقي . . . .
لست أدري

ولقد تجلّت الناحية القسطائية من روح الشاعر في « طلاسمه » أو في « لاأدرياته » التي عمد فيها الى الشك في كل شيء ، على أنه جاوز في شكوكه الحدّ الذي وقف عنده الفلاسفة حتى أوشك أن ينكر ذاته او أنكرها . وليس في « طلاسم » الاستاذ ابو ماضي نظريات نستطيع أن نكتشف فيها مذهباً فلسفياً فطلاسمه مزيج من أسئلة ما برحت منذ القديم الى اليوم تخرج على السنة الفلاسفة والمفكرين ، على انه عرف ان يذرّ عليها رماداً من الشاعرية الرائعة :

أتراني كنتُ يوماً نغماً في وتر

وأقصى رغبة صاحب «الجداول» في طلاعه أن يكون شاعراً لا فيلسوفاً

* * *

وللشاعر ايليا ابو ماضي طريقة هو معها نسيج وحده ، فهو لا يلتزم الخيال المجرّد من الذهن كالعدد الكبير من شعرائنا في المهجر ، ولا يحجّر فكره بالافراط في الوضعيّات الذهنيّة كما هو شأن البعض من شعراء سوريا ولبنان ، بل هو في شعره بعيدٌ ماين هؤلاء واولئك ؛ في الندر ما نجده لا يلتزم وحياً يتمسّك بالاحتكاك بالحقيقة ، فهو في كل ما يكتب — اذا استثنينا بعضَ قصائده وبعضُ الطلاسم منها — يصل ياقوتةَ الشاعرية بلؤلؤة الحقيقة السوداء ، على أنه يطلي شعره بقليل من الالوان ويهره بكثير من الموسيقى

ولا يجمل بنا أن ننكر ان الشاعر أبا ماضي يرمي في شعره الى هدف فهو في المجتمع الانساني مصلح صارم ، وقد نحت من هذه الناحية الى شاعر لافونتين الذي أنطق الاشجار والبهائم ليسمع الرجل ، ومن يطالع قصائده « الضفادع والنجوم » و«الطين» و «ابن الليل» وغيرها يتّضح له بأية نظرة ينظر الشاعر الى المجتمع ولا يبقَ مجال للشك في أن الثعلب والليث والبدر والضفادع والنجوم إنما هي نحن ، فمجتمعنا هذا ليس سوى كهفٍ للبهائم الشرسة أو المحتالة ، والويل لكلّ بهيمة ضعيفة أو مسالمة

واذا قرأت قصيدة « الطين » وهي أبلغ قصائد الشاعر المتمرّدة ، وقعت على فكرة اشتراكية وربما كانت شيوعية أيضاً ترمي الى الوقوف في وجه القوّة والاقوياء والأغنياء والمتسلطين وكل ما ادّعاه ويدّعيه المجتمع المتكبّر ، المجتمع الذاهب في مذاهب العجرفة المكتسبة من جهل الانسان ذاته الحقيقية :

نسي الطينُ ساعةً أنه طينٌ حقيرٌ فصال تيهاً وعربَدْ
وكسى الخزُّ جسمَهُ فتباهى وحوى المالَ كيسُهُ فتمرّدْ

وإنك لتقع في هذه الطرفة الشعرية على كبرياء الشاعر ، تلك الكبرياء الجليلة ، وقداُوتيت قوّة التعبير الساحر القاهر تتجسّدت في كل بيتٍ من أبيات القصيدة وراحت تُعمل في المتكبرين من أبناء الطين مبضعها الجارح ، وما زالت تُعمل فيهم هذا المبضع حتى استوى لها ما أرادت فأنزلت الجبّار عن عرشه المزعوم وقالت له إنك من جنس غيرك وإن تكن متقلداً السيف وملتحفاً بالبردة الموشّاة :

يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمةٌ ولا أنت فرقدْ
أنتَ لم تصنع الحرير الذي تلبس واللؤلؤ الذي تتقلّدْ

... أنت في البردة الموشاة مثلي في كسائي الرديم تشقى وتسعد
... ايها المزدهي، اذا مسك السقم ألا تشتكي ؟ ألا تتنهد ؟

أجل ، والاسكندر الذي دوّخ الأرض وافتتح الهند وفارس وقهر الفينيقيين في أعز أيامهم والذي شرب « خمرة الآلهة » ووزع كؤوسها على قواده مات كما يموت الدهماء ، لقد مات على أثر استحمامه في البحر وهو سكران . . .

* * *

عند ما انتهت الحرب العالمية سمعنا أصواتاً ساحرة تتحدر الينا من العالم الجديد ، ولم يكن لنا عهد بمثلها قبل ذلك الحين ، فشخص الشباب بأرواحهم الى مصادر تلك النغمات وما لبث ان أخذ بجمالها الجديد وروعتها النادرة واذا بتلك النغمات تمتزج بأرواحه وتملك عليها مذاهبها واذا بأدب صادق ينشأ على شواطىء بحر الروم كان من ثماره هذا التطور الذي نلمسه اليوم في أدب الشباب

أما تلك الأصوات الساحرة فكانت صادرة من قلوب جبران ، ونعيمه ، وعريضه ، وأيوب ، وابو ماضي وغيرهم . على ان نغمات شاعر « الجداول » تختلف عن نغمات إخوانه أدباء لبنان في المهجر التي توشك أن تكون على وتيرة واحدة على ما هي عليه من الصدق في العاطفة والاخلاص في الشعور . ففي شعر ايليا ابو ماضي وحدة في الندر ما تجدها في شعر غيره ، وبهذه الوحدة يمتاز شعر صاحب الجداول الذي يُعدُّ بحق في طليعة شعراء هذا العصر

قلت إن ايليا ابو ماضي يرمي في شعره الى هدف ، فهو في كل قصيدة من قصائده يحوم حول فكرة يتخطفها بما اوتيه من قوة المنطق وصدق التصور حتى يقسر على الاقتناع بها كما يريد ، من غير أن يلهيك بكثرة الألوان والأصباغ كما هو شأن العدد الكبير من شعراء المهجر الذين يتعشقون جمال الكلمة الملوّنة فيأتونك بالصورة والموسيقى ويبهرونك بسحرها حتى لتكاد تنسى أنك أمام مفكر ، وفي هذا جمال رائع على أنهُ فيه نقصاً يُحدرهُ عن مستوى الشاعرية الحقة . وعندي أن الشاعر العبقري هو من تجسم في قلمه الثالوث الاكمل : الموسيقى والصورة والفكرة

وقد لا تجد بين الشعراء من قدّر لهُ أن يبرز للصورة صادقة عن عصره كايليا ابو ماضي فهذا الشاعر يغمس ريشته بدم زمنه ويدوّر ، ولهذا تجده يعمد في كل ما يكتب الى استثمار الحقائق الواقعة فيرسم لك احزان الحياة وأشجانها وأفراحها وملذاتها ثم يذهّبها بنور من أنوار الخيال ، ولهذا ايضاً لا تجده يعمد الى التكلف في شواعره ، وقد يكون عاش بنفسه كلّ ما عبرَّ عنهُ بقلمه ، ولن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات :

قد يصير الشوكُ إكليلاً لملكٍ أو نبيّ
ويصير الوردُ في عِطر وقر لصٍّ أو بغيّ
أيغار الشوكُ في الحقل من الزهر الجنيّ
أم ترى يحسبهُ أحقرَ منهُ ؟ . . .

أجل ، لن يستطيع أن يطلق هذه الصرخات إلاّ من مهرت الحياة جبينهُ باكليل من الشوك وإلاّ من ارتهُ بلاهة الاقدار زهر الحياة على صدور اللصوص والعاهرات !

لا مشاحة في أن الشاعر عرف مصائب الحياة ، وهذه المصائب اثّر في شعره ، على أن روحهُ الجبارة تأبى عليهِ البكاء ، ولكنهُ كثيراً ما يعمد الى الانتقام من تلك المصائب فيظهر بمظهر العابث بالحياة الواقف على قمتها البيضاء . . . فبينا نراه وقد سئم الحياة مع البشر وملّ حتى أحبابه وخلانه ، وبينا نراه متضجراً من المراوغين والدرّافين

ومن القبيح في نقاب جميلٍ ومن الحسن تحت الف نقابِ
ومن العابدين كل إلهٍ ومن الكافرين بالاربابِ

إذا بنا نسمعهُ يرجع الى كبريائهِ الجبارة فيقول :

قد سقتنا الحياةُ كأساً دهاقا حسنت نكهةً وطابت مذاقا
وسقينا مما شربنا الرفاقا

ثم يتزيّد في كبريائهِ فيستطرد قائلاً :

لوسكنتم قصورنا بعض ساعه لنسيتم شهوركم والسنينا

ثم يتكلف ، انتقاماً من الحياة ، رؤية الناحية الجميلة منها فيقول :

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

وربما أراد بذلك أن يقول للبشر : « إنكم تدنّسون في نفوسكم صورة الانسانية النبيلة ! »
على أن هذه النظرية صارمة قاسية وإلاّ لكانت نفس بيرون وبودلير في أبعد ما يكون من البشاعة ! وإلاّ لكان الشطر الكبير من نفس ابي ماضي بشعاً ايضاً ، وذلك ما لا نريد أن نسلّم بهِ فالشاعرية السامية تبسط اليهِ يدها الالهية وترفعهُ الى فردوس الكواكب الأزلي فهو بدعة من بدع القلب والروح

بيروت الياس ابو شبكة